

المحاضرة السابعة: التنمية الاجتماعية المستدامة من خلال التراث.

-قراءة في تجربة حسن فتحي عمارة الفقراء-

تمهيد:

يعتبر أمر اللجوء إلى مأوى يحمي الإنسان من عادات الزمن أمراً غريزي وضروري، فقد بحث عنه الإنسان مثل بحثه عن الطعام، ولذلك لكلمة المسكن لغة علاقة بالفعل سكن سكوناً والسكون وهو الطمأنينة والأمان، لقوله تعالى: {وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا}، أي ما تلتجئون إليه، وما تأتمنون به، ومنه السكنى والسكن هم أهل الدار.

1- ماهية العمارة:

هناك من عرّف العمارة على أنها تكوين فضائي يستجيب لمتطلبات المنفعة والمتانة والجمال والاقتصاد، ومن خلالها تتجلى براعة المعمارى في تحقيق نوع من الانسجام والتوازن بين هذه العناصر الأربعة، فالمنفعة مطلب ينحصر في دور الإيواء والسكن والعمل، أما المتانة فيقصد بها قوة التحمل ضد العوامل الطبيعية، والجمال مطلب قديم قدم الإنسان فهو يسعى دائماً إلى تحقيق أكبر قدر منه بدءاً من أول الكهوف التي سكنها، أما الجانب الاقتصادي فيتمثل في ربح أكبر قدر من أشعة الشمس والتهوية الطبيعية، كل هذه الأمور الأربعة تحلّت بها العمارة الإسلامية التي سجلت بصمتها في مجال البناء، وأنتجت مدناً محصنة من بلاد الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً بطرز معمارية متباينة، تمثلت في الطراز الأموي والعباسي والمصري السوري والمغربي الأندلسي والهندي والإيراني، وهناك وهي تتميز عن غيرها من العمائر بالجوانب التي تنحصر في مايلي:

وقد شكل المسكن الوحدة المعمارية الأساسية المكونة للحي السكني بالنسيج العمراني منذ القدم، وكان مظهره الخارجي موحداً بين الفقراء والأغنياء في عملاً بمبدأ المساواة بين أفراد المجتمع الواحد الأمر الذي جعلها تشكل وحدة اجتماعية قبل أن تشكل وحدة معمارية، وهي لا تكاد تختلف في تصميمها من الداخل إلا نادرًا، ويرجع الاختلاف إلى العامل الجغرافي ونوع مواد البناء، وفيما يخص مظاهر الاتفاق في التصميم الداخلي للمساكن تتجلى في احتوائها على فناء مكشوف تلتف حوله

الغرف، عاكساً بذلك المظهر الثقافي والجانب الحضاري العام للأسرة المسلمة، باعتبارها النواة الأساسية المكونة للمدينة ومحور ازدهارها وتنظيمها.

2- مشكلة الإسكان: عاش الإنسان منذ القدم وهو دائم البحث عن إطار معيشي يحقق له سنة البقاء، وقد اعتمد في تحصيل ذلك على ما وجدته في الطبيعة من مواد ، وعلى الرغم من بساطتها فقد حققت له ما كان يصبوا إليه، وظل الأمر على ذلك النهج من فترة ما قبل التاريخ إلى الفترة القديمة ثم الوسيطة مروراً بالحديثة، لكن سنة التغير التي طغت على عدد من المجالات أثرت على مسار التنمية في جميع المجالات، وصاحب ذلك ظهور عدد من المشاكل، ربما تأتي في مقدمتها مشكلة الإسكان بسبب النمو الديموغرافي وعدم استجابة الوعاء العقاري، خاصة أنه تم اللجوء إلى مواد بناء أغلبها تستورد من الخارج، وهو ما زاد في تعقد الوضع، تعرف على أنها النقص الفادح في توفير السكن لأفراد المجتمع، وهي تعتبر واحدة من المشاكل الناجمة عن سوء الأوضاع الاقتصادية والتعقد الاجتماعي في بلد ما، ونظراً لأهميتها فهي من بين المشاكل التي تستقطب اهتمام جميع الحكومات.

3- تجربة حسن فتحي من خلال العمارة التراثية:

المعالم التاريخية ليست مباني مجردة من أي ثقافة أو أي مرجع، بل على النقيض من ذلك، فهي إحدى القنوات الهامة التي تمكننا من فهم ما يدور من حولنا وما كنا عليه، لذلك أمكن القول تحطم وانحيار معلم تاريخي أو تخريب موقع أثري هو ذوبان لشخصيتنا وفقدان لهويتنا إلى الأبد، وعليه ندعو ذلك من للحفاظ على النمط الأصيل حتى يبقى التواصل بين الماضي والحاضر ، وحسب رأينا يتم ذلك من خلال إنجاز مباني بتصميم إسلامي يراعي ما كان سائداً عند الأسلاف قديماً، ولعل أهم رواد هذه الفكرة المعماري حسن فتحي صاحب مشروع عمارة الفقراء الذي استقاه ، فكرة أنظروا طين الأرض تحت أقدامكم ثم بنوا، وقد امتد من سنة 1945 إلى سنة 1953 أي ثمانية سنوات، ولاقى إقبالاً كبيراً من طرف الدول، حيث أنجز العديد من المشاريع المماثلة له في كل من أمريكا والعراق، كما أنه نال به عدة جوائز ، أبرزها ما ناله سنة 1980، حيث منحت له جائزة الأغاخان وجائزة نوبل البديلة، والأجدر بنا أن نسير على خطى هذا المعماري الذي امتد فكره المعماري مكاناً

إلى مواد البناء المحلية المتمثلة في التراب والجير والرمل والحجر ، وزماناً إلى فترة زمنية بعيدة عنا، في ظل الاجتياحات المتكررة التي يعرفها الموروث المادي ، وتجدر الإشارة أنّ مشروعاً مماثلاً لما سبق ذكره لا يقل أهمية عنه قد أنجز هنا بالجزائر، وبالتحديد في قصر تافيلالت بولاية غرداية التي تحتضن تراثاً مادياً ذائع الصيت، ونظراً لهذه الميزة التراثية تم إنجاز قصر يتضمن 1050 مسكن مشيد من المواد المحلية، ومتناسقة مع بعضها البعض من حيث الشكل.